على متن قارب

رياء بنت خليفة الهنائية

عندما انسلخ النهار ليظهر القمر برفقة النجوم النشيطة ، لقد كانت أمواج البحر الزرقاء نائمة في سبات عميق إلا بعضا من الأمواج المشاغبة كانت تدغدغ الشاطئ بين تارة والأخرى ، يرافقها نسيم بارد تتراقص طربا من خلاله أوراق أشجار المانجروف، لقد كان هناك في تلك الصورةالليلية قارب صغير وسط ذلك البحر الواسع على متنه ثلاثة من رجال كانوا يجدفون بسرعة يبتعدون عن قريتهم الصغيرة المكتظة بالأكواخ الخشبية عدة أمتار ، كان الشاب الذي في مقدمة القارب كاتبا للأشعار ،لقد كان شعره مجعداً ينتعل حذاء جلدياً، كبيراً، لديه حقيبة خشبية ممتلئة بالكتب، وبعض من أشعاره محترقة الأوراق ، أما في وسط القارب فقد كان شاب وسيماً، يرتدي قميصا بنياً، داكناً تغطي رأسه قبعة من الصوف وعليها ريشة حمام زاجل ، لقد كان طيلة الوقت يغني بعض من أغانيه المزعجة كانت تلك المقطوعات الموسيقية التي تصدر من جيتاره ذات الخيوط الناقصة أشبه بمكينة تخترق جذوع الأشجار .

أما في الخلف فقد كان الأكبر بينهم ،لقد كان طويل القامة أسنانه الأمامية ناصعة البياض، إلا أن بعضا من قطع السمك المشوي كانت عالقة على أنيابه كان يشير ببنانه الضخم إلى النجوم ويبدأ في ذكر أسمائها بصوته المتهدج: «انظروا إنه الدب القطبي وذاك» .....

بغتة صمت هو آلة جيتاره بعدما جاءه صوتا غاضبا من الشاعر: «اصمت لقد أزعجتني، لماذا أحضرت هذا الجيتار ؟ عديم الفائدة».

قاطعه، وبدأ يصرخ في وجهه: «ولماذا أنت أحضرت تلك الأوراق المحترقة» كان شجاراً عنيفاً كادا أن يسقطا بعضهما للقرش الجائع.

لكن صوتا خشناً أوقفهم بزجرة حادة: «سأعيدكم إلى القرية من جديد، لن تصبح شاعرا مشهورا، ولا أنت لن تصبح عازف جيتار، ومغنيا بارعا، سأعيدكم إلى القرية سوف يجعلونكم فقط مزارعين تجنون كل شيء من الأرض ، تزرعون البقدونس ،وتطعمون الأغنام ، ستتظفون الإسطبل كل صباح.

كانا يتوسلان إليه

«أرجوك لا أنت تعرف لماذا خرجنا من القرية أنا لا أريد أن أكون مزارعاً،لا أريد أن أتزوج فتاة لا أحبها مجرد أنها من القرية ، انظر إلى شعري الذي سهرت لكي أكتبه عن عاشق ، ربما يكون ذاك العاشق أنا ، أبي حرق بعضه لا أذكر كل كلماته ، يا أيتها الجميلة إليك ..... لا أذكر باقي الكلمات إنها محترقة ، لقد كانت في الأوراق بقايا من رماد» .

«أما أنا فحدق في جيتاري الذي اشتراه صديق لي كان في المدينة لقد بعت جميع ما أملك حتى ساعة أبي التي كانت الذكرى الوحيدة المتبقية لي بعد موته لقد بعتها ، إن أمي قطعت بعضا من خيوطه ، كانت تريدني طوال الوقت أن أكون معها في المزرعة لمساعدة شقيقي الأصغر».

«وأنت أيضا تريد أن تألف كتاباً عن الفلك ، تريد أن تعلم الناس أسماء النجوم ،والظواهر الفلكية التي تحدث كل عام ، عن القمر والمريخ».

«أنت قلت لناستزهر أحلامنا يوماً ، لن نيأس ما دامت أقدامنا تسعفنا للوصول إلى الهدف».

هز رأسه بعدما نكسه كان يفكر بعمق شديد عن صمت المكان كان الجميع يتحدث مع نفسه بسرية ،كانت ظلالهم مختبئة في عمق البحر.

فجأة اهتز القارب لقد كان أسفله قرش ضخم ،جائع.

قال الشاعر وهو ينظر للقمر الذي يختبئ خجلا خلف الغيوم :»ستموت أحلامنا ،وستدفن داخل ذلك القرش ، لن يحضر أحد جنازتنا ،ولن يكون لنا نصيب من دعاء مصل» .

رد عليه العازف وهو يعزف اللحن

آه هربنا من أجل الحياة

ونسينا أن الموت يلاحقنا

لا حلم سيحيى في دواخلنا

رحلت أحلامنا ورحلنا معها

قال لهم وهو يضع كتفيه على قدميه التي كانت ترتجف بشده: «تيأسون وفي أيديكم أحلامكم ،جيتارك تمسكه بيدك ، وأنت تضم كتابك إلى صدرك وأنا النجوم ترافقني في دربي ، ألا تفكرون قليلا في حل حكيم»

كان القارب يهتز شيئا فشئيا

بغتة لامس سهم مسموماً ظهر القرش فاختلطت الدماء بماء البحر ،وأقيم حفلٌ للأسماك الصغيرة التي تنتظر قدوم هذا اليوم بفارغ الصبر

أما على متن القارب فقد كانت أعينهم تحدق في قارب صغير على بعد خمسة كيلومترات على متنه شاب ذي عضلات صلبة، يحمل فوق كتفه العريض رمحا ، وبعضا من الأسهم كانت في حقيبة قماشية خلف ظهره،لوح بقبعته عالياً ثم قال بصوت مرتفع: «اذهبوا لقد أنقذت حياتكم» ثم ذهب لقد كان يبتعد، صوت تجديفه يتلاشى شيئا فشئيا.

ثم أكملوا تجديفهم، ظهرت أمامهم جزيرة، كان الظلام يلبسها ثوب العتمة.

اقترحوا أن يرتاحوا فيها، عندما نزلوا نسوا أن يربطوا القارب بحبل، لأنه لم يكن هناك حبل في القارب.

كانت جميع أمتعتهم في القارب الذي كان البحر يسرقه في غفلتهم.

لم يكن في الجزيرة تلك سوى بعض من العظام والهياكل وبعض من الأخشاب المتناثرة

فأوجسوا خيفة، ورعباً ثم نظروا للقارب الذي كان وسط البحر يكمل طريق عودته بنفسه .

أسند العازف ركبتيه على الأرض حزناً ثم قال :

نزلنا بسرور ثم نسينا

قاربا كل أحلامنا فيه

آه على قلب توجع ما وفينا

عهدا قطعناه على مر السنينا

ونحن الآن أشباه أموات

يضمنا البحر بكل زواياه

في جزيرة مهجورة نزلنا

وضاعت أحلامنا وكل ما لدينا

ثم نظر للبحر وقال: «ليتنا ما خرجنا نظل نزرع ونحصد ما زرعنا»

نهض الشاعر وادخل يده النحيلة في جيبه الأيسر ، ثم فتح يده كانت في راحة يده بعض من البذور ..